

المجلد: 09 / العدد 01 / جوان (2025)، ص.ص. 75-82

التخييل وتجلياته في الصناعة الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني

Imagination and its manifestation in poetry for Abdul Qahir Al-Jurjani

د. توفيق قحام

toufik.gueham@univ-jijel.dz

جامعة محمد الصديق بن يحيى، جيجل

(الجزائر)

سميرة حفوف *

samira.hafhouf@univ-jijel.dz

جامعة محمد الصديق بن يحيى، جيجل

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/06/02

تاريخ القبول: 2025/01/27

تاريخ الاستلام: 2025/01/02

ملخص:

يروم هذا البحث إلى تتبع تلقي جنس التخييل في الثقافة العربية الإسلامية، والذي شهد تحولا من لفظه الأصل ألا وهو المحاكاة إلى مصطلح التخييل، كون هذا الأخير هو جوهر الأقاويل الشعرية، الأمر الذي اتفق عليه الفلاسفة المسلمين والنقاد العرب، وعليه سنحاول من خلال هذه الرحلة البحثية تتبع هذا المصطلح في الثقافة العربية على وجه أخص عند عبد القاهر الجرجاني، وذلك من خلال استخلاص آراء ووجهات نظره تجاه هذه النظرية والتي جمعها في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، بغية البحث عن نوع الإضافة من خلال هذا المنجز، وقد توصلنا إلى: حضور جنس التخييل في الصناعة الشعرية ضرورة حتمية، فهو جوهرها وقوامها الذي تقوم عليه. -التخييل وعلم البيان من منظور الجرجاني وجهان لعملة واحدة لا فصل ولا انفصال بينهما، فكل منهما يكمل الآخر. كلمات مفتاحية: التخييل، المحاكاة، الفلاسفة، الجرجاني، علم البيان.

Abstract:

this research paper aims to trace the reception of the genre of imagination in Arab-islamic culture, which witnessed a shift from its original word, which is imitation, to another term that is different in wording and identical in concept, which is imagination, since the latter it is the constructing poetic statement, something that Arab philosophers and critics have agreed upon therefore, through this research trip, we will try to trace this term in Arab culture in particular, according to Abd al-Qahir al-Jurjani, by extracting his opinions and viewpoints towards this theory, which he collected in his two books, Evidence of Miracles and secrets of Rhetoric, to search for the type of addition through, we have achieved that:

-the presence of imagination in the poetic industry is an inevitable necessity, as it is essence and the foundation upon which it is based

-Imagination and rhetoric are two sides of the same coin, with no separation, Both complement each other

* المؤلف المرسل.

Keywords: imagination ; imitation ; philosophers; Abd al-Qahir al-JurJani; rhetoric

1مقدمة:

تُعد المحاكاة في الثقافة اليونانية من بين أهم المسائل البالغة الحضور والأهمية في الصناعة الشعرية، والتي سجّلت حضورها في سجل الثقافة العربية، إذ كان من روافد ذلك تأثير الفكر اليوناني على الفكر العربي وتأثر هذا الأخير به، فكانت المحاكاة نظرية رحبة الأكثاف واسعة الجنبات، ويُعد المعلم الأول أرسطو طليس السبّاق الذي جمع شتاتها وقعد أركانها، لتمتد قنوات عبورها إلى البيئة العربية واتخذت من التخيل مُرادفا لها، فسار فلاسفة الإسلام والنقاد العرب على المسلك نفسه الذي رسمه فلاسفة اليونان عامة وأرسطو خاصة، ليحصل الاتفاق على أنّ التخيل يُمثل رُكنا ركنيا في العملية الإبداعية، فهو الملكة الدالة على فحولة الشاعر وعبقريته في نظم الأقاويل الشعرية وفق نمط تصويري تخيلي يتم من خلاله خلق فضاء تواصلي تفاعلي بين المبدع والمتلقي، فكان عبد القاهر الجرجاني من الذين آمنوا بضرورة حضور التخيل في الصناعة الشعرية وهو ما انتضح في كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ومن هنا تطرح الإشكالية تسأولها كالتالي:

-كيف تجلّى جنس التخيل عند عبد القاهر الجرجاني؟ وما منطلقاته الفكرية؟

والهدف من البحث في هذه المسألة هو الكشف عن تجليات التخيل في المدونات العربية وذلك من خلال ما قدمه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه نُجاة جنس التخيل في الصناعة الشعرية، أضف إلى ذلك تحديد دائرة العلم التي ينتمي إليها جنس التخيل من منظور الجرجاني، وقد صُبط البحث وفق منهجية ضمت مُقدمة، ومُجملة من العناوين الرئيسية والفرعية، تنوعت بين التنظير والتطبيق، واختتم البحث بخاتمة لحصنا فيها جملة النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الورقة البحثية.

2حدود الكتابة الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني:

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الشعر صناعة كباقي الصناعات، له شروط وقواعد لا بُدّ أن تُؤخذ بعين الاعتبار حتى يصل صاحبه إلى منزلة الجودة، والتي ضبطها في النقاط التالية:

-يرى عبد القاهر الجرجاني أنّ الشعر فن كباقي الفنون يشترط على صاحبه الجودة في التمثيل والتصوير والتزييق يُحده في ذلك القياسات المنطقية، تجلّى ذلك من خلال قوله: "واعلم إنّما قولنا الصورة هو تمثيل وقياس"¹، فالصورة الشعرية كتمثيل تتخذ اللغة فيها من الإجراءات البلاغية آلية لها لتصوير المعاني بصورة مرئية وملموسة حتى يسهل للمتلقي فهمها، ومن هذا التمثيل يشرع المتلقي في قياس المعاني، ذلك أن الصور المبنية على الرموز لا يمكن أن تُفهم بطريقة مباشرة بل يأخذ معناها بعد الرجوع إلى التحليلات والقياسات المنطقية، فكان الشعر بذلك تخيل ومحاكاة، الأخيرة يحدها القياس المنطقي.

- تجاوز الجرجاني الرتبة الكلاسيكية التي تنص على أنّ الوزن رمز من رموز الجمالية في الأقاويل الشعرية، فهو يرى أنّ: "الوزن ليس هو من الفصاحة والبلاغة في شيء، إذ لو كان له مدخل فيها لكان يجب في كل قصيدتين اتفقتا في الوزن أن تتفقا في الفصاحة والبلاغة"²، وعليه فالجرجاني خالف كل من ادّعى على أنّ الوزن قاعدة لبناء المقولات الشعرية، وإنه معيار الفصاحة والبلاغة، فهو يرى عكس ذلك فالوزن الشعري في نظره ليس له أي تأثير على فصاحة القول وبلاغته، فاتفق قصيدتين على وزن ما لا يعني أنهما متساويتين في الجودة اللغوية، فالفصاحة والبلاغة في نظره مرتبطة بمحتوى النص وأسلوبه، وجودة النص تكمن في مدى قدرته على التعبير عن المشاعر وليس في الالتزام بالوزن فقط، أضف إلى ذلك قدرته على نقل المفاهيم والأفكار بصورة واضحة والتي يتمكن من خلالها الأديب التأثير في المتلقي.

- التوفيق بين الطابع الحسي والتجريد العقلي في الصناعة الشعرية، يقول في جمعه بين الحس والتجريد من خلال تبين الغاية من التمثيل: "ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للتمثيل، ولم تتصادف هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه، إلّا لأنه لم يراع ما يحضر العين، ولكن ما يستحضر العقل"³، فالجرجاني يشير إلى اختلاف الأجناس الأدبية وتنوع خصائصها ومميزاتها والتي بدورها تؤدي إلى الاختلاف والتنوع في الرؤى والمفاهيم، ومن هذا المنطلق يؤكد الجرجاني

على ضرورة استحضار العقل للتمييز بين هذه العناصر، وإغفال العقل والاكتفاء بالشكل فقط يؤدي إلى الخلط في المضمون والتشويش في المعاني، فتفقد هذه الأخيرة دلالتها، لذا وجب الجمع بين ما يُرى جسدياً وما يُفهم عقلياً للوصول إلى المعنى الحقيقي.

- يرى الجرجاني أنَّ التخييل ركن من أركان الخطاب الشعري، وظيفته في الصناعة الشعرية العمل على تحسين القبيح من الصور أو تقييح الحسن، يقول في ذلك: "والتخييل يغض من شرف الشريف ويطأ من قدر ذي العزة والمنيف، ويظلم الفضل ويهضمه ويخدش وجه الجمال ويتخونه ويعطي الشبهة سلطان الحجة ويرد الحجة إلى صبغة الشبهة ويصنع من المادة الحسيسة بدعا يعلو من القيمة ويعلو ويفعل من قلب الجواهر"⁴، فالتخييل هو قوام الأقاويل الشعرية إذ يعمل على ترميم النقص في الصور التخيلية، وقد يحدث عكس ذلك إن لم يتقن صاحب الصناعة استخدامه وأفرط في توظيفه فيعود بالسلب على المعاني، إما بأن يقلل من قيمة كل شيء رفيع ويصبح المعنى أقل قيمة، وقد يهضم حق الفضائل الحميدة ويُعرض الصور إلى التشويه والتقليل من جلالها، وقد يجعل من الأشياء الغامضة تتجلى على غير حقيقتها وتبدو يقينية لا ريب فيها مما يتمكن من إقناع المتلقي دون أن يشعر هذا الأخير بذلك، أضف إلى ذلك قد يرفع من كل ما هو بسيط إلى منزلة عالية والعكس في ذلك، وعليه فالتخييل ملكة وآلية ينبغي الاعتدال في توظيفها، فكل تجاوز وإفراط يؤدي إلى اختلال المعاني والبُعد عن معناها الحقيقي.

فهذه هي أركان الشعر في نظر الجرجاني والتي ينبغي على كل شاعر أن يعتمد عليها في بناء الأقاويل الشعرية حتى يرتقي بشعره إلى منزلة الجودة، شأنها كشأن أركان عمود الشعر، وبها يتمكن الناقد من تمييز الشعر الجيد عن رديئه.

3أدبية الصورة الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني:

تُعد قضية اللفظ والمعنى من بين أهم القضايا النقدية العربية القديمة التي تركت بصمتها في الساحة النقدية، والتي أدت إلى انقسام رواد النقد إلى فريقين: الأول يرى أنَّ اللفظ هو اللبنة الذي تقوم عليه النصوص الأدبية، أما الثاني يرى أن المعنى هو قوام ذلك، وهناك من انتصر إلى المزاجية بينها على رأسهم عبد القاهر الجرجاني، يرى في ذلك أن لا اللفظ يؤدي إلى الجمالية وحده ولا المعنى وإنما بكليهما، وما يزيد من جمالية النصوص هو الجودة في نظم الأقاويل الشعرية، والحسن في التركيب بين حلقات النص، وهو ما يكشف لنا أن الجرجاني قد تجاوز مسألة اللفظ والمعنى وركز على ما هو أهم من ذلك وهو جودة النظم: "ففي النظم تتفاعل عناصر التأسيس لتنشئ نسيجا من العلاقات هو النص"⁵، فالجرجاني يرى أن النص الأدبي-الشعري، النثري- هو نسيج لغوي مُحكم الصياغة، لا بُدَّ أن يُراعى فيه الأسلوب الأنيق مع الدقة في اختيار اللفظ الذي يعمل على إنتاج معنى رصين، وما يساهم في تحقيق هذه الجمالية هو حسن توظيف كل من:

- الروابط البلاغية-التي تقوم على الاستعارة، التشبيه والكناية...إلخ، فالشعر فن يُبنى على الدقة في التصوير وحسن التعبير فهو عند الجرجاني: "سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يُعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منه خاتم أو سوار...كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام"⁶، فالكلام في نظره هو فن كباقي الفنون كفن التصوير والصياغة، فتشكيله يتطلب دقة وعناية إذ يقارن الجرجاني صورة المعاني النهائية بأشكال الخُلّي بعد تشكيلها من الذهب أو الفضة، فالطريقة والدقة التي تُشكل بها هذه الأخيرة هي الطريقة نفسها في المعاني حتى تكون أكثر جمالية، إلا أنه يشير أن الشكل الخارجي ليس هو فقط معيار جودة النص ومعانيه بل ينبغي التعمق أيضا في محتواه ومضمونه، فجوهر الصناعة الشعرية يُبنى على التآلف بين اللفظ والمعنى لا تفضيل أحدهما على الآخر.

وتماشيا مع ما سبق ذكره فإنَّ جودة الشعر وردائه من وجهة نظره هي من جودة اللفظ والمعنى أو من رداءتها، حيث شبه الجرجاني جودة الصناعة الأدبية بعمل الصانع، الذي يرى أن جودة وجدالية الخاتم من جودة اختيار الذهب والفضة، كذلك الحال في اللفظ والمعنى، يُضاف إلى ذلك حُسن الاختيار مع البراعة في التصوير وهو ما يكسب الصور الشعرية التخيلية جمالية هدفها التأثير في المتلقي، فكان الشعر بذلك ما هو إلا مزج الواقع بالخيال أضف إلى ذلك هو تفاعل بين النص والمتلقي.

ولا مناص من القول أنَّ ما يزيد من جمالية الصور وجودتها هو قدرة الشاعر على الوصل بين العالمين الواقعي والخيالي حتى تكون الصور أقرب إلى التصديق المنطقي، فكلما كان الشاعر قادراً على الجمع بين العالم الواقعي والعالم الخيالي كلما كان أكثر براعة في التحكم في نسيج نظم النص وتألق في تركيب صوره فهو: "يخطئ كل من يرى أن الأدبية في اللفظ ويجعله فوق المعنى ويخطئ من يعتقد أن المعنى وحده يصنع الأدبية ويذهب إلى أن المسألة مسألة نظم وتأليف، وأن هناك بُعداً ثالثاً وهو بعد الصورة التي تجمع بين اللفظ والمعنى بشكل لا انفصال له وهذا هو معيار الأدبية الذي يجب أن نبحت عنه في تحليل الخطاب الأدبي"⁷، فأدبية الأقاويل الشعرية لا تقتصر على اللفظ وحده ولا على المعنى لوحده بل بالجمع بينهما، فكلاهما مُكمل للآخر لا فصل ولا انفصال بينهما يُراعى في ذلك حُسن الاختيار، مع الدقة والبراعة في التركيب بين الصور لتتجلى بصورة مكتملة ذات مبنى ومعنى رصين.

4. الصناعة الشعرية بين اليتي التخيل والمنطق:

في أسرار البلاغة ناقش عبد القاهر الجرجاني قضايا نقدية كثيرة من بينها قضية السرقات الشعرية، فمن خلال تطرقه إلى ما يسمى بمسألة الأخذ وإعادة صياغة المعاني يُقسّم الجرجاني هذه الأخيرة إلى: "معنى عقلي: وهو الذي يجري في الشعر والكتابة والبيان والخطابة مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي، وكلام الصحابة، ومنقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، وقصدهم الحق"⁸، فالمعنى العقلي هو الذي يحمل المفاهيم والتصورات التي تقوم على العقل والمنطق، فكانت المعاني العقلية هي تلك الآليات الاستدلالية التي تُعزز من صدق التعبير، فالجرجاني هنا يشير إلى قيمة المعنى العقلي في الفنون الأدبية، وهو كل معنى يقيني صحيح لا ريب فيه قائم على الصدق والحقيقة.

أما المعنى التخيلي في نظره فهو: "الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق، وإن ما أثبتته ثابت، وما نفيه منفي... ما يجيء مصنوعاً قد تلطّف فيه، واستعين عليه بالرفق والخذق حتى أعطي شبيهاً من الحق وغشي روثاً من الصدق باحتجاج يُخيل وقياس يصنع ويعمل"⁹، فالقول يُفيد بأن المعنى التخيلي هو جملة الأفكار والمفاهيم التي نجدّها في أي فن من الفنون الأدبية بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وتكون قائمة على التخيل والتي يتم تصويرها بشكل مصطنع، فينتج عن ذلك دلالات تحمل الكثير من الشك والاختلاف.

يلوح لنا تقسيم الجرجاني للمعاني إلى عقلية وتخيلية إنّما هو نتيجة تأثره بتقسيم الفلاسفة لأقسام المنطق حيث وضعوا الشعر في مقابل البرهان، وميّزوا بين التخيل الشعري والتصديق البرهاني والتصديق الجدلي، هذا كله اعتراف من الجرجاني بالطريقة القياسية للشعر التي تقوم على أساس مقدمات مخيلة¹⁰، ليتضح أن التخيل يقوم على صور تخيلية قد لا يكون لها وجوداً في الواقع أصلاً، وبخندق الشاعر وبراعته في النسيج والتركيب بينها يسعى إلى تقريبها إلى الحقيقة من خلال تدعيمها بمُحجج تكون أقرب إلى المنطق، فالجرجاني يرى أن الغاية من الشعر لا الصدق ولا الكذب بل التخيل القائم على المنطق، يضرب نماذج من القياس الشعري التخيلي، أي المعاني التي يمكن للمتلقّي أن يصل إليها بالمنطق وقياساته من خلال استشهاده بقول البحّري:

"كلفتمونا حدودَ منطقتكم في الشعر يكفي عن صدقه كذبه"¹¹.

فأراد: "بكلفتمونا أن نحري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندعي إلّا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويلجئ إلى موجهه، مع أن الشعر يكفي فيه التخيل، والذهاب بالنفس إلى ما تراتح إليه من التعليل"¹²، فبناءً على قول البحّري أراد بذلك أن الشعر يقوم على الخيال والإبداع وليس على المنطق فقط، فالالتزام بهذا الأخير فقط قد يؤدي إلى التقليل من جماليته، فالشعر يبنى على حرية التأمل وحرية الشعور والتخليق بالمشاعر والعواطف بعيداً عن قيود المنطق وحدوده، والمنطق يُعتمد عليه كآلية لإقناع المتلقي ودعم الأقاويل الشعرية من أي ادعاءات التي بفضلها يحصل الرضا في نفس المتلقي حتى ولو كانت الأقاويل الشعرية مبنية على الكذب، الأمر الذي يعكس روح الإبداع والفن.

إنّ انتصار الجرجاني للكذب الفني في الصناعة الشعرية لم يكن من باب الخطأ من جمالية الأقاويل الشعرية، فالشاعر من خلال شعره يعمل على تصوير الواقع بصورة مُغايرة تختلف عن حقيقته، إنّما بتحسين الواقع أو تشويهه: "وكذلك من قال قول: (خير الشعر أكذبه) فهذا مراده، لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً، بأن ينحل الوضع من الرفعة ما هو منه عار، أو يصف الشريف بنقص وعار، فكم جواد بخله الشعر، وبخيل

سجاء، وشجاع وسمه بالجن، وجبان ساوى به الليث، وغني قضى له بالفهم، وطائش ادعى له طبيعة الحكم، ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنايره، وتنتشر دبايجه، ويفتق مسكه فيضيع أريج¹³، فالجرجاني يدعو إلى عدم وضع قواعد ثابتة لقول الشعر، خاصة ما تعلق بالمعايير الاجتماعية والشخصية الذاتية، ذلك أن الشعر يحمل الكثير من التناقضات، وإذا أردنا فهم الشعر علينا بفهم معانيه بناء على نسقه الفني، وأن نكون على علم دائماً بأن ما ورد فيه من رؤى ومواضيع قد تكون صادقة وقد تكون عكس ذلك، فكان أغلب الشعر في نظر الجرجاني مبني على الكذب المخيل الذي يؤدي بالمتلقي إلى التصديق، فهو بذلك يطرح قياسات منطقية التي تجعل من القارئ يؤمن بحقيقة مفادها أن فلان فعلاً شجاع، فكانت الصناعة الشعرية حسب الجرجاني: "إنما يُمدُّ بأعها، وينشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخيل، ويدعي الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والاغراق في المدح والذم، والوصف واللبث والفخر والمباهاة، وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يمدح ويذم، ويبدئ في اختراع الصور ويعيد¹⁴، فالقول الشعري مبني على التخيل من خلال نسج الصور وتركيبها في مخيلة الشاعر، الأخير يسعى إلى تقريبها إلى الحقيقة من خلال ضبطها وفق حدود المنطق، فتلتقها الذات القارئة وتتقبلها عن طريق التعليل الشعري والقصد به: "أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع ثم يجيء الشاعر فيمنع أن تكون لتلك المعروفة ويضع له علة أخرى"¹⁵، يستشهد لنا بقول المتنبي:

"ما به قتل أعاديته ولكن يفتي اختلاف ما ترجو الذئاب"¹⁶.

والقصد بذلك: "الذي يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديته فلا إرادته هلاكهم وأن يدفع مضارهم عن نفسه، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم، وقد ادعى المتنبي كما ترى أن العلة في قتل هذا المدحود لأعدائه غير ذلك"¹⁷، قراءة للآيات التي سبقت البيت الشعري نجد أن المتنبي قد خالف بعض العادات والطباع المشهورة في هجوم الملك على الأعداء وهي القتل، إلى تصوّر آخر باتيان علة شعرية جديدة وهي أن الغاية من قتل أعداءه ليس رغبة في الخلاص منهم، بل الغاية أن يقدم للذئاب رزقهم، والممثل في لحوم الأعداء فيكرهم الملك بقتل أعداءه وتقديم لحوم أعداءه لهم، هنا نجد المتنبي قد تألّق في تصوير صورته الشعرية التخيلية بكسر الطباع والعادات المتعارف عليها، وبهذا يعمل التعليل الشعري إلى إثراء المعنى وتنوعه، ممّا يجعل من الأقاويل الشعرية أكثر عمقاً وتأثيراً.

5-التخيل وآلياته البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني:

ينقسم الكلام في نظر الجرجاني إلى عدّة أنواع، يختلف باختلاف أغراضه ومقاصده ودلالاته، وعليه قسّم الجرجاني الكلام إلى قسمين: "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده (...)، وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"¹⁸ تفسيراً لما سبق يمكن القول أن الكلام بناء على كيفية الوصول إلى المعنى ينقسم إلى قسمين، الضرب الأول من الكلام يمكن أن يصل إلى معناه بطريقة مباشرة واضحة لا تأويل فيه كقولنا الجو حار، أما النوع الثاني لا يصل إليه باللفظ البسيط وإنما نحتاج فيه إلى لفظ آخر يؤلّد لنا المعنى المقصود، تلك الدلالة لا يكون لها وجود إلا بحضور إحدى الآليات البلاغية كالاستعارة والكناية، التشبيه، ومعنى ذلك هو أن المعنى الأول يتخض من رحمه معنى ثان، فمثلت الاستعارة والكناية روابط بلاغية تضيف سحرها الجمالي على الأقاويل الشعرية للزيادة من فصاحتها وجزالتها، والتعزيز من عمق معانيها.

5-1المشهد الاستعاري وفعل التخيل:

تعد الاستعارة من أكثر الآليات البلاغية حضوراً في النصوص الإبداعية، مُثّلة في هجرة الكلمة من معناها المتداول إلى معنى آخر، وقد تبنّاه عبد القاهر الجرجاني إلى الأثر الذي تحدّثه الاستعارة في تركيبة النصوص الإبداعية التخيلية من خلال تقسيمها إلى ضرب مُفيد وغير مُفيد، والمفيد هو الأساس في التخيل فهو يُمثّل صورة من صور العقل لا تتأتّى إلا للفحول من الشعراء، فهي عند الجرجاني مصدر من مصادر الإبداع الأدبي، يقول في ذلك: "اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول، وهي أمد ميداننا وأشدّ أفتنانا وأكثر جريانا، وأعجب حسنا

واحساناً...) تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر "19، فالاستعارة تختلف عن النوع الأول من الكلام الذي ذكره - كلام تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده - فالمعنى فيها أكثر عمقا وجالية، فالمفيد منها هو ما يُستنبط منه معنى كبير بلفظ يسير، تُضَيُّ ما غُضُّ من المعنى بنور الفهم والإفهام مع تقريب الصور إلى العالم المحسوس، أضف إلى ذلك الكشف عن كل ما خفي من معاني وذلك بهدف التأثير على المتلقي.

أما نوع الإضافة التي أضافها الجرجاني في التخيل الشعري تتمثل في سحب الاستعارة من محيط التخيل راجع ذلك إلى: "أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخيل لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعتمد على إثبات شبه هناك، فلا يكون مخبره على خلاف خبره، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة في التنزيل على من لا يحفى... الاستعارة سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعي دعوى لها شبح في العقل "20، فالاستعارة في نظره ليست جزءاً من التخيل في الشعر، ذلك أنها لا تهدف إلى خلق صور خيالية مستقلة، فهي آلية لربط الأفكار وتعزيز المعاني بطريقة تعكس عمقا عقلياً، فالاستعارة كلام محذوف لو قمنا بإرجاع الكلام إلى أصله الأول نجد أنه كلام عقلي منطقي صحيح، تجلّى لنا فقط بصورة تخيلية، المسألة التي أشار إليها الكثير من الدارسين على رأسهم عبد الرحيم وهابي على أن الجرجاني طرح هذا الرأي بهدف تنزيه النص المقدس عن الكذب الذي أناطه بالقول الشعري.

2-5 التشبيه والتخيل:

يُعَدُّ التشبيه إجراء بلاغي هام عند أرباب البلاغة والبيان، من وظائفه التقريب بين الصور الحسية والمعنوية بين الأقاويل الشعرية في ذهن المتلقي، عزّقه الجرجاني من خلال قوله: "واعلم أن الشبيهين إذا شُبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما أن يكون من جهة أمرين لا يحتاج إلى تأول والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول"21.

فالتشبيه عند الجرجاني قائم على التخيل وهو على ضربين: الأول منه لا يحتاج إلى تأويل كتشبيه الأسنان بالبرد وتشبيه أصابع اليد المُنْصَبّة بالحناء بالغناب وغير ذلك، أما الضرب الثاني فهو الذي يقوم على ماطلة المعنى، وهو ما يدعوا إلى الدقة في التأمل، وظيفته تجسيم المعنى مع التأثير في القارئ، يقول الجرجاني في ذلك: "أن أسس النفوس موقوف على أن يخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصرح بعد مكني"22، وعليه فالتشبيه جزء لا يتجزأ من العمل الإبداعي، وظيفته هذا المكون البلاغي في الصور الشعرية التخيلية هو العمل على إخراج معانيها من عالم الخفاء والغموض وتقريبها إلى ذهن المتلقي، فتصهر ذات هذا الأخير مع النص وتتفاعل معه استحضاراً أو استهجاناً.

3-5 كناية الصورة وصورة التخيل:

تُعَدُّ الكناية من الإجراءات البلاغية التي عرفت حضوراً قوياً في علم البلاغة، والقصد بالكناية هو: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمى به إليه ويجعله دليلاً عليه"23، وعليه فالكناية لا تُقدّم المعنى للمتلقي في قالب جاهز، بل تجعل من القارئ يجاهد كي يصل إليه، إذ يعتمد المتكلم جعل المعنى أكثر عمقا، فالكناية تُعزز من الإيجازات وتُجمل من القارئ يصل إلى المعنى المقصود بنفسه، فإدراك المعاني من الصور التخيلية البلاغية يعود إلى العقل يقول في ذلك: "الاستعارة كالكناية تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ، وإذ قد عرفت أن طريق العلم بالمعنى في الاستعارة والكناية معا المعقول، فاعلم أن حكم التمثيل في ذلك حكمهما، بل الأمر في التمثيل أظهر"24، فالاستعارة كالكناية تعمل على إيصال المعنى بطريقة غير مباشرة، ويُستخرج المعنى من دلالات مختلفة بدلا من الألفاظ نفسها، فارتبطت الاستعارة والكناية بكل ما هو معقول، وتنطوي الصور التعبيرية على جانب حسي يخاطب البصر من جهة، وجانب عقلي من جهة أخرى، فهو يطالب المتلقي بضرورة إعمال العقل والتدقيق في نقاط الجمال، فهو يرى أن: "ليس الغرض بنظم الكلم إن تواتر ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"25، فنظم الكلمات ليس مجرد ترتيبه ألفاظها أثناء النطق، بل هناك ما هو أهم من ذلك وهو تنسيق الدلالات والتقاء المعاني وفق نطق يتفق والعقل، وهذا بهدف طرح نص لغوي بلاغي متناسق ومتكامل.

وإذا عدنا إلى تتبع النماذج الشعرية التي كان يستشهد بها الجرجاني كانت تلك التي تقوم على مبدأ الشائبة: "فن ملاحظة الأمثلة التي شغلت الجرجاني في حديثه عن التمثيل، وهي في أكثرها لشعراء مثقفين مثل أبي تمام والمتنبي وابن الرومي وغيرهم، أي أن فيها تأملاً في الكون واستخراجاً لأوجه التشبيهات الغربية والتأسي للحجج في الطبيعة، ندرك هذه الازدواجية بين العقل والحس، بين الاقتناع والتأثير، بين الصدق والكذب"²⁶، فوظيفة الكناية هي العمل نسج صور تخيلية هدفها هو التأثير في نفوس السامعين فتحصل اللذة والامتاع.

فكان التخييل بعلم البيان سمة دالة على براعة الشاعر في التمكن من نسج الصور ضمن قالب مُحكم خيالي بعيد عن المألوف من جملة، أضف إلى ذلك سعيه إلى تحقيق فعل التصديق المنطقي من جملة أخرى، وعليه عُدَّ علم البيان هو ذلك المعطى البلاغي الذي كسب الصناعة الشعرية بثوب الجمالية، فأضحى هو العلم الذي يعمل على توليد المعنى بوسائل بلاغية متنوعة منها التشبيه والاستعارة، الكناية، ذات دلالات مختلفة غامضة كانت أو واضحة.

6 خاتمة:

وجملة الأمر، بعد هذه الرحلة البحثية التي عالجنا من خلالها جنس التخييل ومدى أهمية حضوره في الصناعة الشعرية، استخلصنا في الأخير جملة من النتائج ممثلة في:

- التخييل في نظر الجرجاني هو جوهر الأقاويل الشعرية، والكذب الفني ليس تشويه للصور الشعرية التخيلية، إنما هو آلية يعتمد عليها المبدع بهدف ترميم النقص والفجوات فيها.

- اهتم الجرجاني بالحضور البلاغي في النص الشعري فكان أكثر اتصالاً بالضرورة البلاغية، فكانت الإضافة التي قدمها أنه جعل من التخييل فرعاً من فروع علم البيان وجزءاً من أجزائه.

- الاستعارة، التشبيه، الكناية من أبرز وأهم ركائز النظم عند الجرجاني، تهتم بالمعنى / معنى المعنى، وظيفتها التجسيم والتصوير، وإخراج المعنى من صورة خفية إلى جلية.

- ربط الجرجاني الصناعة بالنفس، الأمر الذي يتجلى من خلال مدى تأثير الصور التخيلية في المتلقي، إذ تمثل كل من الاستعارة والتشبيه والكناية آليات فنية تلف الصور الإبداعية بهالة ذات جلال وجلال.

7 الإحالات:

1 عبد القاهر الجرجاني، 1992م، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، شركة القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 389.

2 المصدر نفسه، ص 364.

3 عبد القاهر الجرجاني، 1992م، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، دار المدني للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 129.

4 المصدر نفسه، ص 297-299.

5 المصدر نفسه، ص 50.

6 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 254-255.

7 مولود بغورة، (2006/2005)، أدبية الخطاب في المثل السائر لابن الأثير، رسالة مخطوطة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ص 28.

8 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 228.

9 المصدر نفسه، ص 231.

10 ينظر: عبد الرحيم وهابي، 2011م، القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، تقديم محمد العمري، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ص 273.

11 أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي ديوان البحري، دبت، تح: حسن كامل الصيرفي مصر، دار المعارف، ج1، ص 209.

12 المصدر نفسه ص 273.

13 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 236.

14 المصدر نفسه، ص 237.

- 15 عبد الرحيم وهابي، القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، 276.
- 16 أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكوفي، 1938، ديوان المتنبي، تخ: عبد الرحمان البرقوقي، ط2، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ص262.
- 17 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص257.
- 18 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص202-203.
- 19 المصدر نفسه، ص33.
- 20 المصدر نفسه، ص238-239.
- 21 المصدر نفسه، ص90.
- 22 المصدر نفسه، ص129.
- 23 المصدر نفسه، ص66.
- 24 دلائل الإعجاز، ص237-238.
- 25 دلائل الإعجاز، ص40-41.
- 26 عبد الرحيم وهابي، القراءة العربية لكتاب فن الشعر، ص395.

8 المصادر والمراجع:

المصادر:

- 01 عبد القاهر الجرجاني، 1992 م، أسرار البلاغة، تخ: محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني للنشر والتوزيع، القاهرة.
- 02 عبد القاهر الجرجاني، 1992 م، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني للنشر والتوزيع، مطبعة المدني، القاهرة.

المراجع:

- 01 أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي، ديوان البحتري، تخ: حسن كامل الصيرفي مصر، ج1، دار المعارف.
- 02 أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكوفي، 1938، ديوان المتنبي، تخ: عبد الرحمان البرقوقي، ج3، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 03 عبد الرحيم وهابي، 2011 م، القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، تق: محمد العمري، ط1، عالم الكتب الحديث، أريد الأردن.
- 04 محمد الخضر حسين التونسي، 1922 م، الخيال في الشعر العربي، المطبعة الرحمانية، دمشق.
- 05 محمد مفتاح، 2000 م، مشكاة المفاهيم النقد العربي والثقافة، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
- 06 يوسف الادريسي، 2012 م، التخيل والشعر، حفريات في الفلسفة العربية الإسلامية، ط01، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان.

الرسائل الجامعية:

- 01 مولود بغورة، 2006/2005، أدبية الخطاب في المثل السائر لابن الأثير، رسالة مخطوطة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر.